

10 اليقين (الضمان)⁽¹⁾

«هذا سيكون مآله الفشل بالتأكيد»

بالنسبة لإنسان ما يعني الضمان: الزواج والعائلة والمدخرات. ويعتقد آخر أنه سيجده في العقود والتأمينات الاجتماعية والاتفاقيات. بينما يرى الثالث في الضمان عدم ارتكاب أي خطأ بعد ذلك، أو أن يقدر على السماح لنفسه بكل شيء واقتناء أي شيء.

لكل امرئ تصوراتهِ الذاتية عن هذا التعبير، بيد أن الجميع يشتركون في أمرٍ واحدٍ حيال تعبير الضمان: الأمل في شيء غير موجود، الضمان والأمن، كوضع مستمر. وهكذا يصبح البحث عن شيء غير موجود بحثاً عمّا يتبَقَّى منه: الوضع المستمر.

فمن النادر أن يكون المرء حيث يظنُّ أنه في أمان، فإذا

(1) استخدام كلمة «اليقين» بمعنى التثبُّت والتأكيد، بينما تدلُّ الكلمة كما وردت في الكتاب بالألمانية على معانٍ عدة، منها الضمان الاجتماعي والتأمين الاجتماعي والأمن. (المترجم).

نعم، ولكن...

كان متزوجاً وأمن على عائلته أو حياته وأمراضه، وحتى مماته، لا يقوم بأي شيء، أو بكل شيء لكي يرتكب خطأً، أو أنه يستطيع أن يقتني أخيراً كل شيء، فإن محتوى الضمان يشجع على شيء، بعيد المنال، مجدداً. شيء، نجعل له من جديد إطاراً نأمل أن نشعر فيه أخيراً بالأمان.

وما أشبه ذلك بصورة ثمينة، تصنع لها إطاراً قوياً، وتعلقها في مكان أمين، لكي تتيقن، بأنها في مأمن. لكنك لا تستطيع بعد أن تكون علقت الصورة بالكاد، أن تضمن، في أن لا يأتي أحدٌ ما ويدفع الصورة ويرميها. المضمون، أن تقوم بوضع «براغي» للصورة وتثبتها على الحائط. لكن، هل تضمن أن لا يأتي أحدٌ ويخدشها؟ لكي تضمن ذلك، ضع زجاجاً على الصورة. لكن، هل تضمن أن لا يصيب كأس، يقذفه أحد الزوجين في ساعة غضب، وتصيب قطعة من الكأس المكسور، الصورة المعلقة على الحائط وتؤذيها؟ المضمون أن تضع الصورة في خزانة ذات زجاج سميك. لكن، هل تضمن أن لا يأتي لصٌ ويسرق الصورة. فمهما فعلنا، لن نشعر بالأمان الكلي، لأنه لا يوجد ضمانٌ مطلق، الشيء الوحيد المؤكد في الضمان، أنه غير مضمون.

ورغم هذا، يمضي غالبية الناس جزءاً كبيراً من حياتهم ساعين للحصول على الضمان المنشود في الركض وراء شيء غير موجود في الواقع، لا كما تفهم منه، وليس في المكان الذي تبحث عنه.

ليس لأنه من غير الممكن أن تكون آمناً، أو تحسّ به. لكن الناس الذين يبحثون عن «الضمان» هم منشغلون في الواقع لاشعورياً بالبحث تحديداً عن الشيء الذي يحول دون كونهم آمنين. يريدون أن يصبخوا شيئاً، لا يرونه في البعيد. والبحث عن الشعور في المكان الذي يُحسّ به يعني: البحث عنه في المستقبل وفي الظروف الخارجية.

يريد الباحث عن «الضمان» التعرف على المجهول منذ البداية وهو يشرك بذلك كل المستقبل ضمن بحثه، ولا يريد أن يكون قبل المستقبل فقط، بل في المستقبل آمناً ومضموناً. وهذا أمرٌ صعب المنال، لأن «فعل الكينونة» يتوجه إلى الحاضر فقط.

ولا تعني الرغبة في الضمان سوى جعل المجهول وغير المضمون، معروفاً ومضموناً. ولكي يُتوصل إلى ذلك، ثمة أمورٌ يجب عملها .. مثل أن نضع حرف (إكس) قبل (يو)، أو بمعنى آخر أن نحول المستقبل في رؤوسنا إلى حاضر. وقد يذهب البعض إلى مدى أبعد من ذلك في اعتبارهم (يو) كأنها (إكس)، بحيث يضعون الماضي المأمون في فكرهم فوق المستقبل ويعلنونه حاضراً مأموناً:

إنهم يضعون تجربة مرّت بهم سابقاً أمامهم في تصورهم، ولا يستحون أيضاً من أن يختاروا دائماً لهذه النقلة الفكرية تجربةً سلبيةً ومحبطة ويتخيلوا أنهم توصلوا إلى الخبرة الجديدة الممكنة. وهم يبدلون التجربة القديمة المعروفة بالجديدة ..

نعم، ولكن...

ليغدوا في لمح البصر مجدداً بأمان. وليشعروا أنهم بأمان في الوقت الحاضر. لأنه لا يمكن أن تكون المرة المقبلة غير المرة الأولى، والاعتقاد بالأمان، هكذا، لأنهم يستطيعون الاستغناء عن تجربة جديدة.

غير أن التشبث بالمألوف ليس مطابقاً مع «الأمان» أبداً. ولن تكون آمناً في أن تتصور ما يقع خلفك، وإنما فقط في أن تجلب ما هو واقع أمامك، إلى ورائك. الضمان ينمو فقط من خلال التجربة.

وما يجعلك آمناً ليس تصور حادثة سلبية ولا الأمان الذي خلفه حدث ورائك، إن ما يجعلك آمناً حقاً، ويؤمن لك فعلاً الوضوح وبهذا، الأمان، هو نتيجة التجربة التي تقع أمامك وتنتظرك وحين تتعرف على المجهول تكون قد بدلت غير المضمون شيئاً مضموناً.

وغير المضمون هو المجهول فقط، وطالما هو مجهول، لن يكون الجديد أكثر ضماناً، كلما انتظرت مدة أطول، للإقدام عليه. سيتوفر الضمان أكثر، حين تعيش التجربة. لأن التجارب الوحيدة المضمونة، هي التجارب المعيشة، وليست التي يُفكر بها. فالتجارب التي تفكر بها، وتتصورها أو التي تستحضرها، كأعمال، لا تقرب إحساسك من الضمان والأمان. إنها تجعل هذا الإحساس يتلاشى. فليس تذكر طعم الحساء ولا تصور طبق من الحساء الشهى يجعلك تشبع.

إنّ الإحساس بالأمان قبل حادثة جديدة، تعيد فيها حادثة قديمة فقط، سيجعلك تعتقد أنك تقدمت خطوة إلى الأمام وأنتك شبعت. وأنت في الحقيقة تطعم نفسك من ضمان حادثة قديمة مضمونة سابقاً. ولن تجعلك هذه أكثر أماناً، لأنّ التسخين الفكري للخبرات القديمة لن يجعلك أكثر غنى في التجارب. وعندما تنظر إلى المستقبل بهذا الأمان، فستفتقد الشجاعة قريباً، للإقدام على كل شيء. لأنّ النظر إلى المستقبل من خلال صور الماضي سيجعلك لصيقاً بالماضي بالتأكيد، حيث كل شيء مضمون لأنك عشت الماضي، وأنت في الماضي في مأمن. إنّما لن يتسنى لك أن تحسّ بالأمان، ولن تكون بأمان ولن تستطيع التطور، إلا عندما تستغني عن الأمان قبل حصوله وعلى الأمان الدائم.

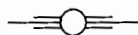
تتعلق المسألة بالدرجة الأولى بتحويل أسماء بعض التعابير إلى أفعال، من شأنها أن تغرينا للوقوع في فخ اعتبار الخبرات التي نفكر بها كخبرات مجربة، وهي بهذا تعرقلنا عن تطوير مقدراتنا التي نريد أن تكون بحوزتنا. لأنّ تحويل الأسماء إلى أفعال لما نحن نكون عليه، أو نريد أن نشعر به، إنّما يسمّي الهدف الذي نرغب بالوصول إليه، حقاً. لكن، ما سيضيع في هذه الناحية، هو وصف الطريق، لأنّ الكلمة الرئيسية «ستتبع» القضية الرئيسية: أي الفعل الذي يقودنا إلى الهدف. وحين نحول الفعل (وهو الكلمة الدالة على العمل أو الحركة) إلى اسم، أي إلى اسم جماد، فإننا نضع ما سنفعله، كحقيقة تامة،

نعم، ولكن...

مما يجعلنا نقع في الخطأ الذي يرينا أهدافنا أشياء، وليس أفعالاً. وبدلاً من أن نحقق الأعمال، لا يوجد سوى التوصل إلى حقائق.

ولأننا نفتقد إلى الإشارة إلى العمل المعني، فإننا مضطرون لاختراع أفعال تعويضية. وهكذا، نبحث عن أناس نستطيع أن نعقد معهم صداقات، مثلاً، فإننا نتمنى الراحة لأنفسنا أو نشاق إلى حياة مليئة بالحب. ونحن لا نفعل هنا غير أن نجري خلف أية تصورات لاشعورية، هي في حوزتنا من المحتوى الوهمي لهذه التعابير، وتتعجب بعدئذ، لماذا ذهب سعيها أدراج الرياح.

يمكن أن يتغير هذا بسرعة كبيرة إذا اكتشفت في اسم الجماد «الفعل المضمن»، حيث تريد أن تصل وتحوله إلى عمل. فإذا أردت صداقات، مثلاً، اعمل، ما يجب عمله، لكي يكون لك أصدقاء. ولو كنت تشاق لحياة ملؤها الحب، فاحرص أن تحيا محباً. واسترح بين الحين والآخر، بدلاً من تمني الراحة.



وعندما تريد الأمان، يتضح أنك تريد أن تكون مطمئناً. كن على ثقة أن ما لست واثقاً منه هو بالتحديد ما ينبغي أن يُضمن من خلال التجربة المناسبة. ولن يتوفر المزيد من الضمان إلا بالتجارب الجديدة. تستطيع أن تباشر هذه التجارب ببسر وسهولة إذا لم تسمح لنفسك أن تهتز من عدم الاستقرار والاضطراب. وليس بالضرورة أن يكون كل ما هو غير مأمون،

خطر. ما يُسمى ببساطة، هو أن الأمر لم يصبح مضموناً. ويشير عدم التأكد والاطمئنان إلى أنك على وشك أن يكون في حوزتك الإمكانية لخوض تجربة جديدة. ليس عدم التأكد والاطمئنان مقياساً للخطر، بل هو معيارٌ لما سيكون الجديد بالنسبة لك.

فحين تشعر بالثقة قبل عملٍ ما، كن على ثقة، أنك لن تكتسب خبرةً حقيقية. إمّا لأنك تملك الكثير من الخبرات في هذا الخصوص، أو لأنك تعتقد بأنك ستملك هذه الخبرات وعندها ستكون متيقناً من أنك تستطيع الاستغناء عنها.

فقط، حين تحسّ بعدم الثقة قبل فعل، يمكنك أن تتيقن أنك قادمٌ على عمل شيء جديد فعلاً. لأن الشيء الوحيد الذي يمكنك إدراك الجديد من خلاله، هو أنه غير مضمون.

إذاً، توقف عن سؤال نفسك، عمّا إذا كان هذا الشيء سينتهي جيداً، أو سيئاً. بدلاً من ذلك تيقن، إذا كان ما تريد القيام به هو نفس الذي تريده فعلاً. واستمع إلى ما ينصحك به حدسك، ثم اقبل به من غير تردد. فإذا كان هذا جديداً كلياً فستكون الفرص في اكتساب خبرة جيدة أو سيئة، على الأقل خمسين بالمائة.

ولن تكون الخبرة مؤكدة على أي حال، إلا إذا كنت أنت خلفها. حينئذ يمكنك التيقن، إذا كانت تناسبك النتيجة، أم لا. لأن المضمون ليس ما سيصبح جيداً، المضمون هو فقط ما عشته.

نعم، ولكن...

ولا يتعلق الأمر، لكي تكون أكثر يقيناً، بكم تجربة جيدة أو سيئة مررت بها، وإنما، ما تعلمت منها، حين مررت بها. ولن تجد الضمان الحقيقي لا في الظروف الخارجية ولا في المستقبل أو الماضي، لكنك ستجده في نفسك وفي أعمالك، وذلك في الزمن الحاضر.

جاءتني مرةً إحدى زبائني، وكانت تسير حسب رغبات غيرها، ومن بين ما كانت تشتكي منه، هو أنها لم تعد تجد نفسها قادرةً على أن تجري حديثاً مع زوجها، من غير أن يفضي الحديث إلى خصام. كان زوجها، كما شرحت، يستغل أي مناسبة ليقوم بدور المعلم لها، وكان يسفّه كل ما تقوله. وقبل انتهاء الأسبوع الأول من المعالجة، رجوتها أن تخبر زوجها بكل تأكيد ووضوح، أنه يؤذي مشاعرها حين يعاملها بطريقة وكأنها تلميذة في مدرسة، وإنها لا تحب هذا أبداً. فقالت: «أنا واثقة مائة بالمائة انه سيقدم لي ورقة الطلاق، إذا قمت بذلك!!» ردت علي بصورة عفوية، لأنها كانت تتصور ردّ فعله المباشر، حين ستقول له رأيها. إلا أن الأمر الذي لم يتضح لها في لحظتها هو أنها قارنت نفسها باللاشعور بامرأة لم تكن لتدرك الأشياء التي خبرتها عن نفسها في أثناء ذلك. لم تكن لتفكر إلا بما حدث في الماضي، عندما كانت تدافع عن نفسها على استحياء وخوفٍ شديدين، والدموع تملأ مآقيها، وتنسحب وهي تشعر بالإهانة. لكن، تذكرت أنها غيّرت من اهتمامها واحترامها وموقفها من ذاتها بشكل جذري وأصبحت تعي

مسؤوليتها الذاتية. طلبت منها أن تبلور هذا الوعي الجديد، حين تتحدث مع زوجها. وفي اليوم التالي جاءني وقد عقدت الدهشة لسانها من رد فعله غير المتوقع:

«أنا آسف، لم يكن قصدي أن أقوم بدور الوصي عليك أو أزجرك. سأنتبه في المستقبل لئلا أفعل ذلك ثانية».